الوصف فى شعر امرئ القيس[1]

بقلم السباعى السباعى بيومى
المدرس بدار العلوم

٤

بعد مقتل أبيه

أما وقد أنهينا فيما سلف من مقالات الكلام على الوصف فى شعر امرئ القيس، على حياة أبيه من نواحيه الثلاث. فإنا جاعلو هذا المقال للكلام عليه بعد مقتل أبيه. وليس بغائب عن القراء ما قلناه فى التمهيد، من أن فنونه بعد هذا الحادث الخطير كانت: الوعيد، والتهديد، والتحمس، والتفاخر؛ وكانت: المدح، والشكر، والمعاتبة، والهجو؛ ثم كانت شكوى أيام جارت، وتذكر عزة سلفت؛ ذاك ما قلناه آنفا فى بيان فنونه وما نعيده الآن ليقع عليه الكلام.

أتى امرأ القيس بمقتل أبيه عامر العجلى وهو «بدمون» إحدى قرى اليمن، مع نديم له يشربان الخمر، ويلعبان النرد. فلما أخبره كف نديمه عن اللعب، فقال له: العب، فما كنت لأفسد عليك دستك. حتى إذا فرغ الدست التفت إلى عامر فاستخبره تفاصيل الخبر، وجرى لسانه يصف وقعه من نفسه بهذه الأبيات:

أتانى وأصحابى على رأس صيلع حديث أطار النوم عنى فأنعما[2]

---

(١) راجع المقال الأول فى «صحيفة دار العلوم» العدد الأول (ص ٢٩ - ٣٩) والمقال الثانى فى العدد الثانى ص (٥٨ - ٦٨)، والمقال الثالث فى العدد الثالث ص (٥٩ - ٦٧)

(٢) صيلع: جبل. ويقال جبل صليع (ككريم) اذا لم ينبت عليه نبت. فيكون كالأصلع

فقلت لعجلىّ بعيد مآبه : أبن لى ، وبيّن لى الحديث المجمجما
فقال: أبيت اللعن ، عمرٌو وكاهل أباحا حمى حُجرٍ فأصبح مُسْلما(١)

ثم مكث ليلته مسهدا . قد طار نومه ، وطال ليله ، فقال راجزا :

تطاول الليل علينا دَمُّونْ دَمُّونُ إنّا مَعْشَرٌ يَمانُونْ
وإنّا لأهلنا لَمُحِبُّونْ

وهو رجز كما ترى يفيض على إيجازه بشعور ما أرقه من شعور ، وذكرى لحسب يتقاضى صاحبه ما يتقاضى من دفاع .

وقال فى فداحة الحادث وتبعات ربيعة وتميم والأتباع :

أرِقتُ لبرق بِلَيْلٍ أهَلّ يضيء سناه بأعلى الجبل
أتانى حديث فكذبتُه بأمر تزَعْزَعُ منه القُلَل
بقتل بنى أسَدٍ ربَّهم ألا كلُّ شىء سواه جَلَلْ
فأين ربيعة عن ربِّها ؟ وأين تميمٌ وأين الخَوَلْ ؟
ألا يحضرون لدى بابه كما يحضرون إذا ما أكل ؟

ثم هم عائدا إلى الشمال ، وأخذ يتهيأ لمحاربة بنى أسد لا يثنيه عنها رجاء ولا وعيد ، وكله ثقه وأمل أن ينال منهم شفاء نفس ، ويأخذ ثأراً يقر عين أبيه . وفى هذه الفترة - فترة الاستعداد - كان يصدر منه شعر التحمس ، والتفاخر ، والتوعد ، والتهديد ؛ فترى اللهب يلمع فى ثناياه ، والدخان يتطاير من شظاياه . وهذا قبس منه يقول فيه مخاطبا نفسه ومتحدثا عن نفسه ، وقد بلغه عن رجل من كنانة إخوة أسد يُدْعى أبا الأسود ، أنهم غير مبالين بتهديده ، قال :

(١) عمرو وكاهل من أسد وكذلك مالك ، وكانوا ثلاثتهم أشد أسد تألبا على حجر .

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بالأثْمَدِ ونام الخلىُّ ولم تَرْقُدِ (١)
وبات وباتت له ليلة كليلة ذى العائر الأرمد
وذلك عن نبأ جاءنى ونبئته عن أبى الأسود
ولو عن نَثَا غيره جاءنى وجُرْحُ اللسان كجرح اليد ،
لقلتُ من القول ما لا يزا ل يُؤْثَرُ عنى يَدَ المُسْنَدِ

فأنت تراه يصف تطاول ليله لهذا النبأ ، ويذكر أنه بات فى أرقه مهموما مألوما . ويُسْبِل على هذا الأرق ما يجعله أشد إيجاعا وإيلاما ، إذ يجعله كأرق الذاهب إحدى العينين المرمود الأخرى ؛ ولكنه يعود فيهون على نفسه أثر ما قال أبو الأسود - وإن كان جرح اللسان كجرح اليد - لهوان أمر صاحبه عليه . ويقول إنه لو قد صدر عن غيره ممن يعنى بهم ، ويهتم لهم ، لقال فى الرد عليه قولا يبقى يد المسند يعنى أبد الدهر لفظة بلفظة . ثم يدع شأن هذا المهين جانبا ويخلص منه إلى خطاب من هم معه جميعا فيقول :

بأى عَلاقتنا ترغبون : أعن دَمِ عمرو على مَرْثَدِ ؟
فإن تدفنوا الداء لا نخفِهِ ، وإن تبعثوا الحرب لا نقعدِ ؛
وإن تقتلونا نُقَتِّلْكُمُ ؛ وإن تقصِدُوا لدمٍ نَقْصِدِ .

وفى هذا يقف منهم موقف الكفء للكفء ، رابئا بنفسه أن يسكت معهم على تِرات ؛ ولكن كأنه وهو ملك يخاطب سوقة قد حز فى نفسه هذا التساوى فتذكر ماضيه وعاد يقول - كأنه قد عدل عن تلك المساواة - :

متى عهدُنا بِطِعانِ الكما ةِ والمجدِ والحمدِ والسُّؤْددِ ،
وبَنِى القِبابِ ، ومَلْءِ الجِفَا نِ ، والنار ، والحطب الموقدِ ؟

(١) أثمد (كأحمد وقد تضم ميمه) : موضع بالبمن .

ثم يوثق هذا العدول ويذكر ما أعدّ لهذا الموقف الجديد من أدوات قتال . وما كان أقدره فى بيان هذا الإعداد جمعا ، وأقصده فيه قولا ! وإليك ما قال :

وأعْدَدْتُ للحرب وثّابةً جَوَادَ المُحَثَّةِ والمروَدِ
سَبُوحاً ، جَمُوحاً ، وإحضارها كمَعْمَعَةِ السَّعَفِ الموقَدِ .
ومُطّرِدا كرشاء الجَرو رِ من خُلُبِ النخلةِ الأجْرَدِ
وذَا شطَبٍ غامِضاً كَلْمُهُ إذا صاب بالعظم لم يَنْأَدِ
ومَسْرُودةَ الشكّ مَوْضُونَةً تَضَاءِلُ فى الطىّ كالمبْرَدِ ،
تفيضُ على المرء أردانها كفيض الأتِيّ على الجَدْجَدِ .

فهو قد أعد لحربهم فرسا جوادا ، ذات وثوب قوى على الحث والإمهال ، تسبح بيديها ، وتعُزّ فى جموحها ؛ وإذا ما أُحضرت سمعتَ لحُضْرها صوت اللهب فى الحديد المتقد ، وأعدّ رمحا ممشوق الطول كحبل البئر المجرورة الماء البعيدة الغور ، الأملس الليف ، وأعد سيفا ذا طرائق لشدة لمعانه ، وإذا جرّح غمَض كَلْمُهُ ، وإذا أصاب العظم نَفَذ فيه ولم يَنْبُ ؛ وأعد درعا محكمة النسج دقيقة الحلق ، حتى انك إذا طويتها تحولتْ فى يدك لذلك ولطراءتها إلى حجم المبرد ، ولكنها حين تلبس تمتد وتفيض على اللابس سعة وتموُّجا كما يفيض الجدول على الأرض الصلبة الـمُسَوَّاة طولَ تموُّج وصفاء ماء .

وقد استصرخ أول ما استصرخ بَكْراً وتَغْلِبَ لِصهْرِه منهما . وللملك عمّيه فيهما . فأعاناه وأقبل بجموع منهما ومن كِنْدَةَ على أسد ، فارتحلت إلى كِنانة خوفا وفَرَقا ، فأتبعهم بجنوده وقد اتقوه بكِنانة ، فوضع السيف فيها وهذا إذ يقول :

ألا يا لهفَ هنـد إثر قومٍ هم كانوا الشفاء فلم يصابوا
وقاهم جدُّهم ببنى أبيهم وبالأشقَيْن ما كان العقابُ
وأفلتهنَّ علبَاءٍ جريضا ولو أدركنه صَفر الوطابُ

فهند أخته ، وقد نسب الحسرةَ إليها . لأن النساء فى ذلك أشد من الرجال ، وبنو أبى أسد كنانة، وهما اخوان، أبوهما خزَيْمَة ، وعلبَاء رجل من أسد كان قد أمر ابن أخته أن يطعن حُجْرًا وهو أسير فيهم قبل قتله ، لأنه كان قد قتل أباه . ثم غادر امرؤ القيس كنانة إلى أسد ، فأدركهم وقد جهدت خيله عطشا ، فأثخن فيهم حتى حجزه الليل عنهم ، فلبسوا ظلماءه هربا. وقد نجا فيمن نجا قَتَلَة أبيه موفورين لم يُكلَمْ أحد منهم كلما ؛ فلم تَشْتَف نفسه بهذه الموقعة ، وقال متحسرا مهددا ناسبا الحسرة إلى هند أيضا :

يا لهفَ هنْد إذ خَطِئن كاهلا القاتلين الملك الحُلاحِلا
خيرَ مَعَدٍّ حسبا ونائلا وخَيْرَهم ـ قد علموا ـ شمائلا
تالله لا يذهب شيخى باطلا نحن جَلَبْنا القُرَّح القوافلا
يحملْنَنَا والأسَلَ النواهلا وحىَّ صَعْب والوشيجَ الذابلا
مُسْتَنْفِرات بالحَصَى جَوَافلا يستشرفُ الأواخرُ الأوائلا

* حتى أُبيد مالكا وكاهلا *

وهو رجز يحرك رمال الصحراء اضطرابا وفزعا ، يخلص فيه من الأسف على عدم إدراك خيله كاهلا قتلة أبيه الملك العظيم ، الذى لا يقف فضله على شعب قحطان ، بل يتعداه إلى الشعب المعدّى ـ يخلص إلى القسم بأن دم أبيه لن يضيع وقد جلب للأخذ بالثأر الخيل بُزْلاً ضوامر ، يحملهم وفى أيديهم الرماح نواهل من الدماء ، ومعهم حىُّ صعب فى مثل عدتهم ، تسابق خيول هؤلاء خيول أولئك وكلها مسرعة مستنفرات بالحصى فى

طريقها إلى أمد ، حتى تُبيد منهم مالكا وكاهلا .

وهذا لون آخر من وعيده وفخره يلوم فيه سُبَيْع بن الحارث وقد لامه على المبالغة فى ثأر أبيه وتوعّده :

أبلغ سُبَيْعًا إن عرضتَ رسالة ... أنّى كظنك إن غشوتَ أمامى
أقصرْ إليك من الوعيد ، فإننى ... مما ألاقى لا أشُدُّ حزامى
وأنا المُنَبِّه بعد ما قد نَوَّمُوا ... وأنا النُّعمانُ صفحة النُّوّام
وأنا الذى عَرَفَتْ مَعَدٌّ فضله ... ونَشَدتُ عَنْ حُجْر ابْنِ أُمّ قَطام
خالى ابنُ كَبْشَةَ قد علمتَ مكانَه ... وأبو يزيدَ ورهطُه أعمامى
وإذا أذِيتُ ببلدة وَدَّعتها ... بل لا أُقيم بغير دار مقام
وأنازل البطل الكريهَ نِزاله ... وإذا أناضل لا تطيش سهامى

وهذا شعر تشرق معانيه من خلال ألفاظه ، وليس فى حاجة كالذى سلف إلى تعليق ، فلنغادره إلى شعر آخر وصف فيه انتصاره وظفره — وقد نال من قتلة أبيه ما نقع فيه غلة ، وشفى منه نفسا — هو الذى يقول فيه:

قُولا لِدُودَانَ عبيدِ العصا : ... ما غَرَّكم بالأسد الباسل ؟
قد قرت العينان من مالك ، ... ومن بنى عمرو ومن كاهل ،
ومن بنى غُنْمِ بن دُودَانَ إذ ... نقذف أعلاهم على السافل
نطعَنُهم سُلْكَى ومَخلوجةً ... كرَّكَ لأمَيْنِ على نابِلِ
إذهنّ أقساط كرِجْلِ الدَّبَى ... أو كقَطا كاظمةِ النَّاهِلِ
حتى تركناهم لدى مَعْرَكٍ ... أرجلهم كالخشب الشائل
حلّتْ لىَ الخمرُ وكنت امرأً ... عن شُربها فى شُغل شاغل
فاليوم أُسقَى غير مُستَحقب ... إثما من الله ولا واغل .

فهو يعدد هذه الأحياء من أسد بعد هذه الموقعة الشافية ، ويطلبه إلى خليليه المُستَخَيَّلَيْن - كما جرت سعادة الشعراء - أن يقولا لهم على سبيل التقريع مسائلين : ما غركم بالأسد الكريه اللقاء ؟ ثم يقول عن نفسه: فالآن قرت العينان له بالتنكيل بكم ، وظهرت آثار الهزيمة والتقتيل شتى على جموعكم ، فَلَشَدّ مَا قذفنا أعلاكم على سافلكم ، وطعناكم على استقامة وفى انحراف ، مسرعين موالين ، كما يفعل النابل لا يزال يرجع إليه مُرْجِع ما يقذف من سهام ، غير مبالين بخيلكم وهى فى كثرتها كأرجال الجراد الصغير ، وفى سرعتها كقطا كاظمة الوَرُود ، حتى تركناكم فى المعرك أكداسا كالخشب الشائل بعضه فوق بعض ، ثم ينهى ذلك الظفر بأن الخمر أصبحت له طلقا وكانت قبل حراما .

على أن الدهر وقد أبى أن يصفو لامرئ القيس بعد هذا الانتصار لطلب المناذرة إياه بطل وعيده ، وتهديده ، وتحمسه ، وتفاخره ؛ وهام فى الجزيرة خائفا ، شريدا ، مُفزَّعا ، مطلوبا ، ينطق بمدح وشكر إذا وجد موالیا ، ويهجو أو يعتب إذا لم يصادف مسعدا . ولكن أنى لامرئ القيس الذى نشأ أميرا ، يقول لنفسه ولهوه ، وتربى فى بيت ملك يكون فيه ممدوحا لا مادحا ، أن يقول الشعر على غراره الجيد رَغَبا ورهبا ؟ إنه قال فى هذه الناحية على إباء من طبيعته ، مضطرا مكرها ، فجاء شعره فيها بعيدا عن رصانته وقوته وابتكاره وقشابته ، فلم يقع فيه مما يقبل عن مثله إلا البيت ينفرد من سائر الأبيات ؛ فهى ناحية جديرة بالترك لذلك ، ولأنها لا تنخرط معنا فى سلك الأوصاف .

أما الناحية الثالثة ، وهى شكوى الأيام الجائرة ، وذكرى العزة السالفة ، فقد جرى فيها على عادته صفى الخاطر رخىّ العنان .

قال ، وقد غلبت عليه القناعة بعد تطواف فى الجزيرة طويل ، يدفع

عن نفسه لوما ، ويعتذر عن حاضر بماض ، ويرضى بما فعل الدهر معه ، غير مرج منه خيرا بعد الذى فعل مع أبيه وأشراف بيته :

فبعضَ اللوم عاذلتى ، فإنى ستكفينى التجاربُ والتسابى
وكل مكارم الأخلاق صارت إليه همتى وبه اكتسابى
ألم أنضر المطىَّ بكل خرق أمقّ الطول لمّاع السراب
وأركب فى اللهام المجر حتى أنال مآكل القحم الغاب
وقد طوفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب
أبعد الحارث الملك ابن عمرو وبعد الخير حُجر ذى القباب
أرجى من صروف الدهر لينا ولم تغفل عن الصم الصلاب ؟
وأعلمُ أننى عما قليل سأنشب فى شبا ظفر وناب
كما لاقى أبى، حُجرٌ وجدى ولا أنسى قتيلا بالكلاب

فهو يطلب إلى عاذلته أن تكف عن بعض لومه إن لم تكف عنه كله ذاكرا أن له تجارب ونسبا ، وأنه لم يدع من مكارم الأخلاق مكرمة إلا صارت إليها همته ، ونالها اكتسابه ، مقدما إليها بعض ما كان له فى ذلك من ماضيه ، فهو صاحب المطايا يهزلها بالسير فى كل مفازة بالغة الطول لامعة السراب ، وصاحب الجيش العظيم الكثير العدد والعُدد يركب فيه حتى ينال من المصاعب المرغوب فيها على شدة اقتحامها مايريد ، وهو - وإن انتهى مطافه فى الآفاق بسلامة الرجوع - غير متأذ من ذلك ولا خائف له عارا ، بعد الذى حدث لجده الحارث وأبيه حجر ، وعمه شُرَحبيل قتيل الكلاب ممن هم أمثلة على أن صروف الدهر التى لاتغفل عن تفتيت الأحجار الصلبة الصماء - وقد كانوا هم كذلك وأشد - ليس لعاقل أن يرجى منها خفضا ودعة ، وأن من وراء ذلك كله لمن تظاهرت

له بالوفاء منية ينشب منها فى شباظفر وناب ، فلا يغنى عنه فى دفعها ما يظن فيه غناء .

وقال ، وقد دفعت به همته إلى ألا يرضى ما صار إليه من قناعته بغير الملك ، ففكر فى أن يخرج إلى قيصر الروم مستنجدا إياه على المناذرة ثم خرج ومعه عمرو بن قميئة اليَشْكُرى وجابر بن يحيى التَّغْلبى ، يصف هذا الخروج وحاله النفسية فيه ، بادئا بذكر أم عمرو :

أرى أم عمرو دمعها قد تحدرا ... بكاء على عمرو ؛ وما كان أصبرا !
إذا نحن سرنا خمس عشرة ليلة ... وراء الحِساء من يدافع قيصرا
إذا قلت هذا صاحب قد رضيتُه ... وقرت به العَينان بُدِّلتُ آخرا .
كذلك جدّى ، ما أصاحب صاحبا ... من الناس إلا فاتنى وتغيّرا .
بكى صاحبى لما رأى الدَّرْب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا .
فقلت : له لا تبك عينُك ، إنما ... نحاول مُلكا ، أو نموتَ فنعذرا .

وقد شاء جده العاثر أن ينتهى إلى ما انتهى به البيت الأخير فقد عاد من لدن قيصر صفر اليد مما أراد ، وأصابه ما أصابه فى طريقه من مرض كان لحمه ينتثر منه انتثارا ، حتى اضطر صاحباه أن يحملاه فى رِحَالة خشبية هى التى عناها إذ يقول متعزيا عن حاضره بماضيه :

فاما تَرَيْنى فى رِحالة جابر ... على حَرَج كالقُرِّ يخفق أكفانى
فيارُبَّ مكروب كرَرْت وراءه ... وعانٍ فككت الكَبْل عنه ففدّانى
وفتيانِ صدق قد بعثت بسُحرة ... فقاموا جميعا بين عَاثٍ ونشوان
وخَرْقٍ بعيد قد قطعت نِياطه ... على ذات لَوْثٍ سَهْوَة المشى مِذعان
وغيث كألوان القنا قد هبطته ... تعاور فيه كل أوطفَ هتّان

على هيكل يعطيك قبل سؤاله أفانين جرى غير كزّ ولا وانِ
وتجز كغلاّن الأتيّعم بالغ ديارَ العدوّ ذى زُهاء وأركان
مَطوتُ بهم حتى تكلّ غزواتهم وحتى الجيادُ مايُقدّنَ بأرسان
وحتى ترى الجون الذى كان باديا عليه عواف من نسور وعقبان

وكأنى به يخشى معاجلة المنية قبل أن يتم تعداد هذا الماضى فيسرع فيه إسراعا دونه سرعة شريط الخيالة : فيذكر المكروب يكر وراءه ليفرج عنه ، والعانى الأسير يقصده ليفك كبله ـ فى بيت ؛ فيذكر فتيان الصدق يبعثهم سحرا فيقومون ولا زالت فيهم آثار الخمر التى سقاهم من خلط ونشوة فى بيت ؛ ثم يعود إلى جده فيذكر تقطيعه نياط الصحارى المترامية ذات الرياح المخرّقة ، ممتطيا ناقته قوية البدن ، مواتية المشى ، مطواعا لراكبها فى بيت ؛ ثم يذكر هبوطه النبت قد تلونت أنواعه بألوان الفنا وتعاور عليه من السحاب كل مسترخ هتان ، على حصان يعطى الراكب أفانين جرى لاضيق فى أحدها ولا فتور . وإذ كان هذا أحب الأشياء إليه أيام لهوه فليكن فى بيتين ؛ وليكن أحب الأشياء إليه فى أيام جده وهو الزحف بالجيوش فى ثلاثة أبيات بعده ، يذكر فيها أنه أسرع إلى ديار العدو بجيش كثير كل شىء ، من عدد وقوة يغطى الأرض كأنه ذلك النبات الكثير الكثيف المعروف باسم الغُلاّن فى أشهر الأمكنة بإنباته ، وهو الأتيّعم . فلم يزل يغزوهم بذلك الجيش حتى كلت غزاتهم ، وقيدت بغير أعنة خيولهم ، وامتلأت بسوادهم الأرض تتخطف لحومهم عوافى النسور والعقبان .

وإن امرأ القيس لم ينس هذه الهمة فى نفسه ، وتلك النجدة من قلبه حتى فى اللحظة الأخيرة التى كاد يسلم فيها الروح وإليك ماقال فى هذا الوقت العصيب يصف مرضه ويذكر نجدته وهو ما سنختم به هذه الأوصاف :

وبدلت قرحا داميا بعد صحة ... لعل منايانا تحولن أبؤسا
فلو أنها نفس تموت حميقة ! ... ولكنها نفس تساقط أنفسا .
وماخفت تبريح الحياة كما أرى، ... تضيق ذراعى أن أقوم فألبسا .
فإمّا ترينى لا أغمّض ساعة ... من الليل إلا أن أكبّ فأنعسا
فيارب مكروب كررت وراءه ... وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا

السباعى السباعى بيومى

ساعة الغروب

بقلم محمود عبده الحمامصى

المدرس بالمدارس الملكية للبنات ببنى سويف

آذنت بالرواح بنت السماء ... فتداعت لها جيوش الفضاء
وترامت بأفقها فى خشوع ... فى ثياب من نسجها حمراء
ويح بنت السماء ماذا عراها ... من ذهول وصفرة وانحناء !
فتراءت ، وليتها ما تراءت ... فى ثياب غريبة دكناء !!
وبوجه من النوى فى قتام ... مثل وجه المريض حين الفناء
أكذا يفعل الفراق بوجه ... باسم الثغر مشرق وضاء ؟

* * *

لبست برقع الحياء ، وماذا ... يرتجيه مودّع فى حياء ؟ !
أكثر اللوم عاشق مستهام ... حين سارت وودعت فى خفاء

* * *

ليت شعرى: وهل يواسيك شعرى ... فى اغتراب وفرقة وتناء ؟!
ذاك مالى بذلته بسخاء ... يوم شدت رحالها أسمائى